

الصَّابئة المندائيون في التاريخ؛ من فلسطين إلى إيران

بمادر قيم^١

تاريخ الوصول: ١٤٣١/١٢/٢٢

تاريخ القبول: ١٤٣٢/١١/١٠

يعدُّ موروث الصَّابئة المندائيين بخلفيتهم التاريخية الممتدة، ضمنَ الجماعات الدينية المعروفة في الثقافة والحضارة الإسلاميتين، وقد جعلهم القرآن في مصافِّ أهل الكتاب. تُظهر الأحداث التاريخية المتصلة بحياتهم الدينية والاجتماعية في فلسطين والواردة في تقاليدهم الشفهية ونصوصهم المقدسة، أنَّ فلسطين كانت منطلقهم الأوَّل.

إنَّ هجرة الصَّابئة إلى بلاد ما بين النهرين عقيبت عوامل خارجية، بما فيها غزو القوى الخارجية، وعوامل داخلية والصراع مع اليهود. ومن ناحية أخرى فقد لعب التسامح الديني من قبل الحكومات الأخمينية والأرشاقية دوراً إيجابياً في مواصلة حياتهم الدينية بعد ما أقاموا في بلاد ما بين النهرين التي كانت تابعة للإمبراطوريات القديمة بدءاً بالأخمينية وانتهاءً بالسَّاسانية، إذ يسرُّ ذلك المناخ التسامح نزوح الصَّابئة إلى الأقاليم الواقعة جنوبيَّ غرب إيران (خوزستان). وقد أمضي الصَّابئة حياة دينية واجتماعية مليئة بالتقلبات والشدائد منذ اجتيازهم الحدود الجغرافية الإيرانية مستوطنين خوزستان إلى يومنا هذا (٢٠١٠م). أمَّا في السنوات الأخيرة بعد اعتبار هذه الفترة الدينية ضمنَ أهل الكتاب من قبل سماحة آية الله الخامني (مد ظله)، فقد فتح فصل جديد للتواجد التاريخي الصَّابئي في إيران ولممارسة حياة دينية واجتماعية على ساحة وادعة. إنَّ هذه الدراسة الاستكشافية الماثلة بين أيديكم بتوجُّه تاريخيٍّ بحث وبحث تصحيحيٍّ للمصادر التاريخية تسعى إلى تقديم صورة واضحة عن الصَّابئة وتعريف جديد للمندائيين يميِّزهم عن عبدة الشَّمس.

الكلمات الرئيسية: أهل الكتاب، الصَّابئة المندائيون، التَّيُّ يحيى (ع)، فلسطين، بلاد ما بين النهرين، خوزستان.

"الصَّابَةِ" لغةً ودلالةً

إنَّ فهم مفردة فهمًا دقيقاً وتطبيق شحنتها الدلالية على ظاهرة ومدلول تاريخيين يمكنان الباحث في تحليله لمغزى موضوع ما من السير قريباً من الحقيقة. فبعد التمعن في المصادر القديمة والحديثة، يمكننا أن نذعن بعدم اتّفاق الدالتين اللغوية والإصطلاحية لكلمة «الصَّابَةِ» في اللغتين العربية والآرامية :

الف- جاء في اللغة العربية «صَبَأً»، «يَصْبَأُ»، «صَبْأً» و«صَبُوءاً» أي «خَرَجَ من دينٍ إلى آخر». (انظر: سعيد الشرتوت، ١٤٠٣ق، ٦٢٨، خليل جرّ، ١٣٨٦ ش؛ ٢٠٥/ ١٣٠٥ فريد وحدي، ١٩٧١ م؛ ٤٢٦/٥) أما النطاق الدلالي فواسع إذ يشمل كلا الجانبين السلبي: الميل من التوحيد إلى الشرك. والإيجابي: الميل من الشرك إلى التوحيد: فقد أورد لفيف من كتاب الملل والنحل هذا المعنى العام أي «الخروج من ديانة إلى أخرى». (انظر: العلويّ ١٣٧٦، ص ٣٦، ابن الجوزي، ١٤٢٦ق، ص ٦٨) وبإمكاننا أن نقدّم مصاديق تاريخية كثيرة لكلا الجانبين السلبي والإيجابي مستخلصة من النصوص التاريخية، فعلي سبيل المثال هناك نموذجان للجانب السلبي من دلالاتي «الصَّابَةِ»، الأول: هو انحراف أبناء قابيل عن التوحيد إلى الشرك بواسطة نحتهم الأصنام على هيئة إنسان وعبادتهم إيّاها إذ أصبح ذلك مبدأً للوثنية.

والثاني: تبعاً للأول ظهور أوثان (ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسر) وتألبيها في المجتمع الجاهلي، ويقال إنّها كانت على هيئة أناس صالحين قد عاشوا في عصور سابقة.

فهذان نموذجان للدلالة على الانحراف والميلان عن التوحيد نحو الشرك. إذ بعث الله سبحانه في العصور اللاحقة النبي إدريس (ع) لهداية الناس ودعوتهم نحو التوحيد. (الكلبي، ١٣٨٥، ١٤٨-١٤٦) وأمّا الجانب

الإيجابي للصَّابَةِ فمن الممكن أن نعلّله مرادفاً «الحنيفية» و«التحنّف» فقد جاء في اللغة العربية أن «حَنَفَ» يعني «انحرفَ» و«مالَ»، «ميلاناً من الوثنيّة إلى التوحيد». (انظر: خليل جرّ ٨٦٧/١، محمّد على مختار، ١٤٠٤ق؛ ١٦٤)

كان أبو قيس صرمة بن ابي أنس من بني النّجّار وخالد بن سنان من بني عبس، ويعدّان ممّن تحنّفوا أي مالوا قبل بعثة نبي الإسلام (ص) من الوثنيّة إلى دين إبراهيم (ع). (العلويّ، ١٣٨٥ش، ٢٧) لعلّ هذا الأمر هو الذي حثّ البعض إلى أن يعتبروا بالخطأ الصَّابَةِ فئةً من المشركين قد مالت من الشرك إلى التوحيد بعد تحوّل في عقيدتها وذلك قبل ظهور الإسلام ومبادئه الأصيلة (انظر: الكلبي، ١٣٨٥ش، المقدمة؛ ص ٧) وهذه الفئة في الأصل: "الحنفا" وليس "الصَّابَةِ". هي الشّهريّان باختياره للجانب السلبيّ لدلالة "الصَّابَةِ": «أن الصّوبة في مقابلة الحنيفيّة»، أي تعارضها. ثمّ يضيف «وفي اللغة صَبَأَ الرَّجُلُ إِذَا مَالَ وَزَاغَ؛ فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحقّ وزيعهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصَّابَةِ». (الشّهريّ، ١٤٢٢ق؛ ٢٠٩) كما قام فريق من الكتاب المسلمين بالبحث عن سبب تسميتهم بالصَّابَةِ باستدلالات دلالية أخرى تبدو أقلّ أهميّة. فذهب الحميريّ إلى أن كلمة الصَّابَةِ مأخوذة من شخصيّة أسطوريّة تُدعى «صاب بن طاط بن حنوخ» وقد كان عالماً في الحكمة والفلسفة والنجوم. وكان أوّل من قام بتشييد هيكل في بابل أصبح كاهناً له ويدعى "بكومن" أي العالم الكبير فلهذا عُرف أبنائهم بالصَّابَةِ. (الحميريّ، ١٩٨٤م؛ ١٩١) قد اعتقد البعض أن كلمة الصَّابَةِ مأخوذة من لفظة الصبيّ التي وردت في القرآن حيث قال سبحانه: وآتيناه الحكم صبيّاً (سورة مريم، الآية: ١٢) وقد نزلت في النبيّ يحيى (ع) الذي تعدّ الصَّابَةِ من أتباعه. (انظر: الحسيني

الشيرازي، ١٣٨٤، ٤٣)

ب - كلمة «الصَّابَةِ» في اللغة الآرامية^١: تقسَّمت اللغة الآرامية في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد إلى عدَّة فروع منها: المندائية والعبرية والبالمرية (التدمرية) والسريانية والنبطية والعربية (انظر: ألبرت، ١٣٨١ش؛ ١١٥، جان جورج، ١٣٨٢، ٤٨) اشتقت لفظة الصَّابَةِ في اللغة المندائية من المادَّة «صبا» أي «التعميد» و«الإرتماس في الماء» (Kurt Rudolph, 2011, P.1)، ولهذا يطلق الصَّابَةِ على طقوس التعميد في الماء لفظة «مصبَّتا». (السباهي، ١٩٩٦م، ٣٢) في حين أنَّ الكتاب المسلمين في تعريفهم لأحوال الصَّابَةِ يؤكِّدون على الدَّلالة العربية دون النَّظر إلى الدَّلالة الآرامية.

الصَّابَةِ وعبادة النُّجوم

إنَّ رِواية التاريخ قد اعتقدوا أنَّ الفصائل البشرية جميعها تنتمي مع كلِّ تشعُّباتها اللُّغويَّة وتبايناتها الدِّينيَّة إلى سبع أُمم قديمة هم: الإيرانيون والكلدانيون واليونانيون والاقباط والأتراك والهنود والصِّينيون وكان أصل هذه الأُمم جميعها ينحدر من الصَّابَةِ الذين كانوا يعبدون الأصنام بوصفها مظهرًا لأشخاصٍ فلَكِيَّة. (ابن العربي، ١٣٧٧ش، ١) كما أشار المسعوديُّ إلى مجموعاتٍ شتَّى من الصَّابَةِ نحو: صابَةِ الكلدانيِّين والصَّابَةِ الصِّينيِّين ويُدعون سُمْنِيه والصَّابَةِ اليونانيِّين والصَّابَةِ المصريِّين وصَّابَةِ حرَّان، وكلُّها تعبد الأجرام السَّماويَّة. (المسعودي، ١٤٢١ق، ١٥٤-١٥٣) وابن العربيُّ في الفصل المتعلِّق باحتلال الإفرنج (الروم الغربيِّين) لبلاد اليونان يذكر: «أنَّ روما كانت عاصمة جميع الرُّوم إلى أنَّ اعتنق قنسطانطينوس ابن هيلانة الدِّيانة المسيحيَّة تاركًا ديانة الصَّابَةِ (عبادة النُّجوم) ثم بنى مدينة بيزنطة». (ابن العربي، ١٣٧٧ش، ٨٥)

فبعد التَّدقيق في هذه الرِّوايات التَّاريخيَّة يمكننا أنَّ نستنتج أنَّ عبادة النُّجوم والكواكب كانت جذريَّة في عصور ما قبل التَّاريخ ونقطة بداية الإنحراف الدِّيني بين قومٍ وقومٍ آخر وبين أُمَّة وأُمَّةٍ أُخرى تبدو متضاربة متفاوطة. أنَّ إطلاق كلمة «الصَّابَةِ» على هذه الأقوام والأُمم بشكل عامٍّ يتلاءم مع المفهوم السَّلبي للكلمة في اللغة العربية أي «الميلان عن التَّوحيد إلى الشُّرك» وهذا الإشتراك في الدَّلالة قد أدَّى ببعض المؤلِّفين نحو الاعتقاد بأنَّ محتد الأُمم هو فَنَة الصَّابَةِ، في حين أنَّ قاسمها المشترك الوحيد يكمن في «تقديسها للنُّجوم وعبادتها لها خاصَّةً منها الشَّمس والقمر» وذلك تمخُّصًا عن الدور المؤثِّر الذي تؤدِّيه النُّجوم والكواكب في حياة البشر. (في ما يتعلَّق بتأثير النُّجوم والكواكب في حياة الإنسان وميلانه نحو عبادتها) (انظر: المسعودي، ١٣٧٨، ١/٥٨٧).

نذكر لذلك أمثلة: أوَّلها: اعتقاد الهنود بأنَّ سبعة كواكب سيارَة تدبِّر شؤون حياتهم. (اليعقوبي، ١٣٧٤، ١١٠) وثانيها: ميلان المصريِّين القدامى من التَّوحيد إلى الشُّرك بعبادتهم «رع» الشَّمس وهو كبير آلهتهم. (انظر: جيمس هاكس، ١٣٤٩ش، ص ٥١٤) وثالثها: عبادة العرب آلهة سَمَويِّين منهم الشَّمس الَّتِي كانت تحظى عندهم بمُتلة كبيرة وهذا بجانب عبادتهم آلهة أرضيِّين وجنَّاء. (بجبي الشَّامي، ١٩٩٣م، ١٠٢) أشار ابن خردادبه إلى قلعة في اليمن كُتب عليها بالخطِّ الحميريِّ «هذا ما بناه شمريهرعش بعون سيِّده الشَّمس». (ابن خردادبه، ١٨٨٩م، ١٤٥) ومن الضَّروريِّ أنَّ نتذكَّر هنا أنَّ عبادة الشَّمس كانت مختصَّة بقبائل حمير اليمنيَّة وقد جاء في تاريخ الأساطير أنَّ سبأ بن يشجب بن يعرب كان يُدعى «عبد الشَّمس». (المسعودي، ٤٣٧/١) فكانت كنانة تعبد القمر، وميسم الدَّبْران ولخمْ وجُذامُ المشتري وطيءُ سهيلًا وقيسُ الشَّعريِّ

وأسد عطار. (ابن العربي، ١٣٧٧ش، ١٢٦) وعلى أساس هذه المصادر القديمة نرى أن كتاب العرب المعاصرين يعدون من تعبد الأجرام السماوية في العصر الجاهلي صابئة. (أبوخليل، ١٢٢٥ق، ٢٦، الشامي ١٩٩٣م، ٢٢).

الصابئة من فلسطين إلى بلاد ما بين النهرين

يتعذر من خلال مدونات المندائيين المقدسة وتقاليدهم الشفهية استخلاص صورة حلية موحدة لمنطلقهم الأول. فبناءً على ما سبق، تقدمت كل من الهند ومصر وفلسطين بوصفها مناطق ظهورهم الأولى. ويعتقد الصابئة أن آدم (ع) قد هبط في الهند قبل ٢٤٥٣٧٩ عاماً وهو أول من تعمّد بيد «ملكها هيل زيو» (الملاك جبرئيل). فلهذا يعتبرون الهند أقدم منطلق لهم. (شهرية بيت مندا، شهر دي سنة ١٣٨٥، هـ. ش ٥، «تقويم صابئين مندائي خوزستان، ٨٩ - ١٣٨٨ الإيراني. ٣١ - ١٤٣٠ ق، ٢٠١٣ - ٢٠١٢ يحيائي، ٢٤٥٣٧٩ ميلاد حضرت آدم (ع)) كما أن الروايات الشفهية تشير إلى تواجد المندائيين في مصر القديمة. (عربستاني، لاتا، ١٩) ولا تحظى هذه الموروثات التاريخية المندائية بخلفية داعمة وطيدة موثوق بها في حقل التدوين للتاريخ الإسلامي. بل تمت فقط الإشارة باختصار إلى هبوط آدم (ع) في الهند وهي إشارات ضعيفة عابرة. (الطبري، ١٤٢٢ق، ١/٧٩/اليعقوبي، ١٣٧٤، ١/٤، المسعودي، ٢٥/١) يذكر المسعودي في رواية أخرى أنه: «لما ولدت أشباع ابنة عمران وهي أخت مريم أم المسيح، يحيى بن زكريا عليهما السلام، هربت به من بعض الملوك إلى مصر، فلما صار رجلاً بعته الله عز وجل إلى بني إسرائيل». (المسعودي، ٥٥/١) وهذه الرواية إن قبلناها فهي أيضاً تتعلق إلى ما قبل بعثة النبي يحيى (ع).

هناك إشارات صريحة لبعض الكتب المقدسة عند الصابئة المندائيين إلى أورشليم وتاريخها تدعونا جميعها إلى أن ندعن بأن فلسطين محطتهم الأصلية، منها أن أورشليم شيدت بعد طوفان نوح (ع)، وأنها مبعث ثلاثمة وستين نبياً، وأن زكرياً وزوجته حظيا فيها بميزة رفيعة، وأن يحيى (ع) آخر أنبياء الصابئة قد ولد فيها، وأن أكبر الصدمات بينه وبين اليهود قد وقعت فيها، وأخيراً أنه التقى فيها بعيسى المسيح (ع) على ضفة نهر الأردن حيث قام بتعميده. (شهرية بيت مندا، دي ١٣٨٥، ٨) بناءً على هذا يمكننا أن نقر أن ما قاله هيكيبيوس Hegesippus (المتوفى ١٨٩م) عن وجود طائفة في منطقة البحر الميت الفلسطينية كانوا يقومون في مياهه بالتعميد تدعي «مصبتين» (السباهي ١٩٩٦م، ٣٣) أقرب إلى الواقع من الرأي الضعيف للكاتب الحديث جولوس ليوي Julius lewy الذي اعتقد أن الصابئة قد استقروا بداية في واحة التيماء شمالي الحجاز. (م. ن، ٣٢) لأنه اعتمد على ماجاء في العهد العتيق فذهب إلى أن كلمة الصابئة مشتقة من كلمة «شبا» وهم من ذرية النبي إبراهيم (ع) لزوجة قطورة (انظر: العهد العتيق والجديد، ١٣٨٠، تكوين ٣-١) فرضاً لهذا الرأي يكفينا أن نعلم أن العرب يطلقون لفظة «التيماء» على أرض قفرة تخلو من المياه، (انظر: ياقوت الحموي، لاتا؛ ٢/٤٧١) وأن أرضاً كهذه خالية من المياه، خاصة الجارية منها التي يعتبرها المندائيون أهم وسيلة للتعميد، لا يمكن أن تكون مستقر لهم. علاوة على هذا فقد ورد في النصوص التفسيرية للعهد العتيق أن مفردة «شبا» العبرانية هي نفس «سبا» اليمنية وطن الملكة الشهيرة بلقيس (انظر: جيمس هاكس، ١٣٤٩ ش، ٥١٤). إن نزوح الصابئة المندائيين من فلسطين نحو بلاد ما بين النهرين قد حدث في ظروف قسرية قد أثارها مجموعة من

العوامل الدَّاخلِيَّة والخارجِيَّة. من العوامل الخارجِيَّة يمكننا أن ننوّه هنا إلى هجمات القوى الأجنبيَّة على أورشليم، وأولها هجمة بختنصر (نبوخذ نصر) وإجلاؤه أهل فلسطين إلى بلاد ماين التَّهرين في القرن السَّادس قبل الميلاد. (اليقوي، ٧٨/١، الطَّبري، ٣٢٣/١، ابن العربيّ ١٣٧٧ ش، ٥٦) ومُن سباهم من بيت المقدس إلى بابل مجموعة من الصَّابِئَةِ المَندائِيَّةين. (البيروني، (لاتا) ٣١٨) وأمَّا الهجمة الخارجِيَّة الأخرى على أورشليم فقد قامت تيتوس (تيطس) وبأمر من والده قيصر الرُّوم سياسيانوس (فسبيانس) عام ٧٠ للميلاد. (ابن العربيّ، ١٣٧٧ ش،

ENCYCLOPAEDIA looklex, 2011, ٩١

P.2) هناك هجمات رومية أخرى على أورشليم حدثت عام ١٣٢ الميلاديّ بأمر من هادريانوس (١٣٨ - ١١٧ م) عقبها تخريب كامل للمدينة وتقتيل شنيع لأهلها وتشريد عديد منهم. (ابن العربيّ، ١٣٧٧ ش، ٩٤) وأمَّا العوامل الدَّاخلية لهجرة الصَّابِئَةِ المَندائِيَّةين يعود إلى مطاردتهم وإيذائهم بصفتهم أتباعاً «يوحنا المعمدان» أي النَّبيِّ يحيى (ع). وعلمنا أن نقرّ أن العنصر اليهوديّ حسب روايات التَّصوص المقدَّسة للمَندائِيَّةين لعب دوراً مهمّاً في مطاردة أتباع النَّبيِّ يحيى (ع) أي الصَّابِئَةِ بعد مقتله وإن لم تقدّم المصادر التَّاريخِيَّة لا المتقدِّمة منها ولا المتأخِّرة صورة للأحداث المتعلِّقة بالنَّبيِّ يحيى (ع). (عن روايات التَّصوص المقدَّسة للمَندائِيَّةين انظر: العريستاي، ١٣٨٣ ش، ٢١) وأمَّا المصادر التَّاريخِيَّة فتوكّد مقتله (ع) على يد بني إسرائيل. (الدَّينوري، ١٣٦٤؛ ٦٧، المسعودي، ٥٥/١) ويصرّح ابن العربيّ أن يحيى قاتل النبي (ع) هي الملكة هيروديا. (ابن العربيّ، ١٣٧٧ ش، ١١١) وأمَّا المصادر المعاصرة فتوكّد على أن قاتله (ع) هو هردوس أنتيباس ملك الجليل من أعمال فلسطين وقد كانت الملكة هيروديا

زوجته غير الشرعيَّة. (ناس، ١٣٨١ ش، ٨٩-٨٦) إنَّ التَّواطؤ بين حكام بيت المقدس واليهود في استئصال أتباع النَّبيِّ يحيى (ع) وعيسى (ع) (في شأن عيسى (ع) وعروجه انظر: ابن العربيّ، ١٣٧٧ ش، ص ٨٩ - ٨٦) أدّى إلى تفرُّقهم في بلدان العالم ومنه نزوحهم نحو بلاد ماين التَّهرين. يقول جان ناس: «بقي الكثير من أتباع يحيى (ع) الأوفياء الذين واصلوا تعاليمه وساروا على دربه إذ لقي الحواري بولس بعد ثلاثين عاماً اجتماعاً لأصحابه في مدينة أفسُس^٢» (ناس، ١٣٨١ ش، ٥٨٥)

الصَّابِئَةُ المَندائِيَّةون في التَّصوص الإسلاميَّة

إنَّ أوَّل وأكمل وأوثق وثيقة إسلاميَّة ذُكرَ فيها اسم الصَّابِئَةِ هو الكتاب السَّمَاويّ للمسلمين أي: القرآن الكريم. حيث ورد فيه ذكر الصَّابِئَةِ في ثلاث سور^٣. وبناءً على ما جاء فيها أُعتبرت هذه الطائفة من أهل الكتاب. أنَّ أوَّل ذكر لها ولمستقرّ أتباعها الجغرافيّ في الحقل التَّدوينيّ للتَّاريخ الإسلاميّ جاء في نصوص تعود إلى القرن الثالث الهجريّ. ويمكننا بعد التَّدقيق في روايات التَّصوص التَّاريخِيَّة لهذه الحقبة أن نستكشف أفقاً جلياً عن حقيقة الصَّابِئَةِ التَّاريخِيَّة تُميّز المَندائِيَّةين التَّعميديّين عن الحرانيّين عبدة النُّجوم.

ألف: الصَّابِئَةُ الحرانيون

كانت هذه الفئة في الأصل تعبد النُّجوم والكواكب في مدينة حرّان وتعود بنسبتها إلى جذور كلدانيَّة عرفت «الحرانيَّة الكلدانيَّة» (ابن التَّديم، ١٣٤٣ ش، ٥٦٥) يقول المسعوديّ في ذكره لهؤلاء الحرانيّين «والَّذي بقي من هياكلهم المعظَّمة في هذا الوقت زمن المسعوديّ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة - بيت لهم بمدينة حرّان^٤ بمعليتيا في باب الرِّقَّة يعرف به "معليتيا" وهو هيكلك آزر أبي إبراهيم الخليل عليه السَّلام عندهم.» (المسعودي،

١/٥٩٩-٥٩٨) لعل هذا الأمر كان الداعي إلى أن تذكر حرّان بوصفها أشهر مركز للوثنية السريانية. (أحمد أمين، لاتا؛ ١٣٠) وكان للصّابئة الحرّانيّين أعلام أو بتعبير آخر أنبياء من أشهرهم: أرائي وإغاذيمون وهرمس بالإضافة إلى سولون جدّ أفلاطون فيلسوف الأُمّة. (انظر: ابن النديم، ١٣٤٣ش، ٥٦٥/ البيهقيّ، ١٣٧٤ش، ١/١٨٠/ المسعوديّ، ١٤٢١ق، ١٥٤) وقد كان الحرّانيّون قبل تسميتهم بالصّابئة يُدعون «الحنفاء» (البيهقيّ، ١٣٧٤ش، ١/١٨٠/ البيرونيّ، (لاتا ٣١٨) و«الوثنيّين» و«الحرّانيّين». (البيرونيّ، ٣١٨) وقد اعتنق بعض من ملوك اليونان والروم ديانة الصّابئة (البيهقيّ، ١٣٧٤ش، ١/١٨٠) ويذكر البلاذريّ في معرض كلامه عن فتح مدن الجزيرة (شماليّ العراق) بيد عياض بن غنم، طائفة من عبدة النجوم والكواكب يدعوه «الحرّانيّة»: «فلما نزل بها بعث إليه الحرّانيّة من أهلها يعلمونه أنّ في أيديهم طائفة من المدينة ويسألونه أن يصير إلى الرّوها، فما صالحوه عليه من شيء قنعوا به وخلّوا بينه وبين النّصارى حتّى يصيروا إليه، وبلغ النّصارى ذلك فأرسلوا إليه بالرّضى بما عرض الحرّانيّة». (البلاذريّ، ١٤٢١ق، ١٧٥-١٧٤) وبسبب اتّخاذ عبدة النجوم طريقة التقية أمام الفاتحين المسلمين فقد ظلّ هؤلاء أنّهم فئات من النّصارى، فهذا الظنّ قد شمل الصّابئة المندائيّين لاحقاً. وقد أظهر عبدة النجوم الحرّانيّون أواخر القرن الثاني الهجريّ أي عهد خلافة الأمين العباسي (١٩٨-١٩٣ق). ديانتهم (انظر: آدام متر، ١٣٧٧، ٥٣) ثمّ تسمّوا بالصّابئة أواخر خلافة المأمون (٢١٨-١٩٨ق). وهذه المعلومة استناداً على مارواه أبو يوسف أيشع القطيعيّ النّصراني، ونقل عنه في كتاب الفهرست: «أنّ المأمون اجتاز في آخر أيّامه بديار مضرّ يريد بلاد الرّوم للغزو، فتلّقاه النّاس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرّانيّين، وكان

زيّهم آنذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة بوفرات كوفرة قرّة جدّ سنان بن ثابت، فأنكر المأمون زيّهم، وقال لهم: من أنتم؟ من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرّانيّة. فقال: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا. قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا. قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا. قال لهم: أفلكم كتاب أم نبي؟ فمحمّحوا في القول. فقال: فأنتم إذا الرّنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الراس في أيّام الرّشيد والدي، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمّة لكم. فقالوا: نحن نوذّي الجزية. فقال لهم: إنّما تؤخذ الجزية ممّن خالف الإسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عزّوجلّ في كتابه، ولهم كتاب وصالحهم المسلمون على ذلك، فأنتم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، فاختاروا الآن أحد الأمرين، إمّا أن تنتحلوا دين الإسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلاّ قتلّكم عن آخركم. فإني قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه فإن أنتم دخلتم في الإسلام، أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه والا أمرت بقتلكم واستتصال شأفتكم. ورحل المأمون يريد بلد الروم فغيّروا زيّهم وحلّقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية. وتنصّر كثير منهم ولبسوا زنانير. وأسلم منهم طائفة، وبقي منهم شذمة بحالهم وجعلوا يبتالون ويضطربون، حتّى انتدب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه، فقال لهم: قد وجدت لكم شيئاً تنجون به وتسلمون من القتل، فحملوا إليه مالاً عظيماً من بيت مال لهم فقال لهم: إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصّابئون، فهذا اسم دين قد ذكره الله جلّ اسمه في القرآن، فانتحلوه فأنتم تنجون به. وقضى أنّ المأمون تُوفّي في سفرته تلك بالبدندون، وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت، لأنّه لم يكن بحرّان ونواحيها قوم يسمّون بالصّابئة...» (ابن النديم، ١٣٤٣ش، ٥٦٨). يصرّح أبوريحان البيروني دون نقل هذه الحكاية أنّ

الحرانين سُموا بالصَّابِئَة سنة ثمان وعشرين ومائتين للهجرة. (البيروني، (لاتا) ٣١٨) ويبدو أنَّ خطأً كتابياً قد حصل حين استنساخ كتاب البيروني إذ سجلَّ المستسخون (ثمان وعشرين) بدلاً عن ثمان عشرة. على أيِّ حال لسنا هنا بصدد تعديل ما روي بل نستنتج أنَّ تسمية الحرانين بالصَّابِئَة قد تحقَّق في ما بعد الإسلام.

ب. الصَّابِئَةُ المندائيون [التَّعميديون]

إنَّ هذه الطائفة كانت في الأصل مجموعة من مهاجرين أجلَّهم بختنصر (نبوخذ نصر) بعد احتلاله لأورشليم إلى بلاد ما بين النهرين. فاستقروا جنوبيَّ البلاد بشكل مجموعات متفرقة. (م. ن، ٣١٨) كما تركزت أعداد غفيرة منهم أوائل الإسلام في بؤرة جغرافية ما بين صحاري جزيرة العرب والبطيحة (الأصبهاني، ١٣٤٦: ٣١٤) تقع في أقصى الجانب الشرقي لنهر الفرات (المسعودي، ١٤٢١ ق، ٦٣) بين واسط والبصرة (ياقوت الحموي، ٣٥٦/٢) إنَّ المصطلحات الثلاثة «المغتسلة» و«المعدان» و«العباديين» الواردة في النصوص الإسلامية المتقدمة يمكن إطلاقها على الصَّابِئَة المندائيين. ويسمَّى ابن النديم صابئة البطائح جنوبي بلاد ما بين النهرين الذين يؤمنون بغسل كل شيء حتَّى أظمتهم، "المغتسله" (انظر: ابن النديم، ١٣٤٣ ش، ٦٠٦) وأمَّا البلاذري فينوّه في تقرير عن فتح الجانب الشرقي للفرات بالمعمودية (المعدان) بوصفها ديانة بني تغلب بن وائل. (البلاذري، ١٤٢١ ق، ١٨٢) فهؤلاء من وجهة نظره نصاري وذلك بتسميته إياهم «نصاري بني تغلب» (م. ن، ١٨١) وأمَّا مصطلح «العباديين» فأطلقه ابن النديم على مجموعة من أهل الحيرة. (ابن النديم، ١٣٤٣ ش، ٥٢٤) هو أيضاً كالبلاذري قد وقع بقوله هذا في خطأ آخر، لأنّه اعتبر العباديين من ضمن نصارى الحيرة. في حين أنَّ مصطلح "العباديين" كانت تطلق على "الصَّابِئَة

المندائيين". ويعدُّ أبوريحان البيروني عرب الحيرة النَّصاري والعباديين طائفتين مختلفتين بعضهما عن بعض تمام الاختلاف. (انظر: البيروني، (لاتا)، ٣١٤) ومن المحتمل احتمالاً قريباً من اليقين أنَّ الطُّقس المتمثل في "التَّعميد" أو "الاغتسال في المياه" والذي يعدُّ من الطُّقوس المشتركة بين "الصَّابِئَة" و"النَّصاري" جرَّ مؤرّخين مسلمين كالبلاذري نحو الخلط بين أبناء الديانتين إذ اعتقدوا أنَّ الصَّابِئَة فريق من النَّصاري.

وحالات الخلط هذه قد امتدَّت إلى العصور التَّاريخية الحديثة. فمثلاً المستعمرون البرتغاليون عند استيلائهم على البصرة وجنوبي العراق بين العامين ١٦٢٢ - ١٦٠٠ الميلاديين اعتبروا المندائيين طائفة من المبتدعين في الدِّين والمهرطقين (انظر: السباهي، ١٩٩٦ م، ١٠/ مهرداد العربستاني، (لاتا) ٣٤) بعد ذلك كان يُطلق والى القرن التاسع عشر للميلاد عليهم اسم «النصاري اليعيشية». (Kurt Rudolph, 2011, P.1). أمَّا فقهاء المسلمين فلم يصدروا حكماً موحداً مشتركاً في حقِّ الطَّائفة المندائية لأنّها مسألة اجتهادية في الفقه الاسلامي وتبدو جدَّ طبيعية. وبعد التَّمعُّن فيها وفي أسباب اختلاف الحكم الفقهي في شأنها يمكننا استخلاص الدِّوافع التَّالية:

- ١- تشابه الحرانين، عبدة النجوم، المندائيين، التَّعميديين واعتبار الفئتين فئة صابئة واحدة. وهذه الحالة كانت تحثُّ الفقهاء على اتِّصاف الصَّابِئَة قاطبةً بالشُّرك.
- ٢- اعتبار الصَّابِئَة فريقاً من النَّصاري وذلك لقيامهم بالتَّعميد في الماء.
- ٣- تأثُّر الدِّيانة الصَّابِئَة بديانات أخرى خاصَّة منها: اليهودية، والمسيحية والمجوسية هو الأمر الذي جعلها تعدَّ ضمن هذه أو تلك من الدِّانات.
- ٤- إدراج القرآن الكريم الصَّابِئَة في عداد أهل الكتاب.

وتداركاً للأمر فقد جمع ابن الجوزي وجهات نظر العلماء المسلمين عن الصَّابئة في عبارات عشر:

- ١- أنهم قوم بين النَّصارى والمجوس، ٢- قوم بين اليهود والنَّصارى، ٣- فئة من النَّصارى إلا أنَّ كلامهم ألطف من النَّصارى، ٤- طائفة من المشركين لا كتاب لهم، ٥- يشبهون المجوس، ٦- فرقة من أهل الكتاب يتلون الزُّبور، ٧- طائفة من أهل الكتاب، ٨- فرقة تصلي نحو القبلة وتعبد الملائكة وتتلو الزُّبور، ٩- يقولون لا إله إلا الله، إلا أنَّهم لا يؤدُّون الواجبات، ولا كتاب لهم ولا نبي، بيد أنَّهم يرددون لا إله إلا الله. (انظر: ابن الجوزي، ١٤٢٤ ق، ٦٨)

الصَّابئة في إيران

بعد فتح قوروش بابل (٥٣٩ ق. م.) تمهدت أرضية ملائمة لمواصلة الصَّابئة المندائيين حياتهم الدِّينية داخل حدود فارس السِّياسية. وتأثرت الدِّيانة الصَّابئية بالفرق المجوسية (الزَّرادشتية، والمزدكية والمانوية) وبالديانة اليهودية في المناطق الجنوبية من بلاد ما بين النهرين. (انظر: البيروني، (لاتا) ٣١٨) وأيضاً التحاق فاتك والد ماني بالمغتسلة أوائل القرن الثالث الميلادي (آرتور كريستن، ١٣٧٨ش، ١٣٤) وكلها تدل على أنَّ ديانة الصَّابئة المندائيين قد تعرّضت منذ الأخمينيين حتّى السَّاسانيين لشتّى حالات القبض والبسط في عقائدها والتأثير والتأثر بالديانات الأخرى. بناءً على التّقاليد الشَّفهية وروايات الكتب المقدَّسة عند المندائيين، فقد كان دخولهم أراضي خوزستان واستقرارهم على ضفاف نهر الكرخة في العهد الأرشافي. (انظر: سبهاني، ١٤٢٧ ق، ٢٤) منذ ذلك العهد إلى سنة ٢٠١٠ م.) وقد قطعت حياتهم الاجتماعية والدِّينية في خوزستان العديد من التّضاريس والتّعرّجات. وإبداء الآراء

في شأن حياة الصَّابئة الاجتماعية والدِّينية داخل إيران طوال الحقب المتقدّمة يبدو مستعصياً بسبب شحّة المصادر والمعلومات التي يمكن الرجوع إليها. وأمّا ما يتعلّق بتاريخهم المعاصر في المصادر الحديثة فيعتمد غالبه على رواياتهم الشَّفهية ونصوصهم الدِّينية التي تحتاج هي أيضاً إلى تمحّص وتأمل. إلا أنَّنا مضطرون أن نقرّ ثانية بأنّ حياتهم الدِّينية والاجتماعية قد احتازت منذ الأرشاقين (٢٢٤م-٢٥٠ق.م) وحتّى عصرنا هذا (٢٠١٠، م) العديد من الخطّات.

إنّ التّعسّفات التي مارستها بعض الحكومات والمضايقات التي أبدتها بعض البسطاء في حقّ هذه الجالية الدِّينية في خوزستان تُعدّ عاملاً أساسياً لتنتقل أتباعها داخل الإقليم وخارجه. فمثلاً طوال العهد المشعشي (١٣٤٢-٨٤٥ ق) أُشير إلى حالات من مطاردتهم التي أدّت بهم إلى التّنتقل من الحويّزة نحو مناطق أخرى مثل تُستر وضاف نهر الكارون. (انظر: سبهاني، ١٤٢٧ ق، ١٤٢٧ ق، ٢٥) ثمّ تواصلت الممارسات التّعسّفية الحكومية ضدّ الصَّابئة في تُستر طوال العهد القاجاري (١٣٤٢-١١٩٣، ق) إلى حدّ المجازر (انظر: العربستاني، (لاتا) ٣٤) بالإضافة إلى الممارسات الضاغطة أواخر القرن الثالث عشر الهجري من قبل العامّة لإرغامهم على اعتناق الإسلام. (انظر: شوشتری، ١٣٣١ ش، ٧٥) وتبعاً لهذا نزح الصَّابئة نحو المحمّرة (خرمشهر) والبصرة. (العربستاني، لاتا، ٢٤) ويبدو أنّ هذه الممارسات والمطاردات في تُستر كانت أشدّ وأقسى منها في مناطق أخرى. فقد وجد مكان مُسمّى بِـ "بندِ صَبِي كُش" أي "سدّ مذبحة الصَّابئة" (السابق، ٣٤): زمن الصَّابئة أو تقرير محمّد علي إمام شوشتری حالياً لا يوجد منهم في تُستر وضواحيها حتّى شخص واحد. (شوشتری، ١٣٣١ ش، ٧٥) وكلاهما يدلّان على حقيقة

هذا الرَّأي.

ويبدو أنَّ الصَّابِئَةَ في الحَمْزَةِ (خرمِشهر) واصلوا بوصفهم أَقْلِيَّةً صغيرة حياتهم الإِجتماعية والذِّنيَّة طوال عهد إِمارة بني كعب. (انظر: مصطفى أنصاري، ١٣٨٤ش، ٢٨) وأما في فترة السَّلاَةِ البهلوية (١٣٩٨ - ١٣٤٤ ق) فقد عانى الصَّابِئَةُ في إيران حياة التَّجاهل والتَّهميش. (عربستاني، لاتا ٣٤). لعلَّه بإمكاننا أن نقول إنَّ أَلَمَ حقبة تاريخية للصَّابِئَةِ المندائيين في خوزستان، هي حقبة ما بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران (١٣٥٧ش/١٩٧٨م)، إذ أصدر سماحة آية الله العظمي الخامنِّي قائد الثورة الإسلامية حكماً بطهارتهم كوفهم من أهل الكتاب وذلك أثناء محاضرات التَّدريس الذِّنيَّة لسماعته في باب الجهاد، وضمن تنقيباته في الآيات والروايات وتحليلاته لوجهات نظر فقهاء الإسلام. (انظر: السَّيد علي الحسيني الخامنِّي، لاتا؛ ٤٣) كما أكَّد سماحته على ذلك ضمن إجابة استفتاءات وَجَّهَتْ إليه. (الخاصَّة، ١٣٨٤ش، ٦٩-٦٧) وقد أدَّى هذا الموقف إلى فتح صفحة جديدة في تاريخ الصَّابِئَةِ المندائيين في إيران.

اليوم يودِّي أبناء هذه الطَّائفة طقوسهم الذِّنيَّة وأعمالهم الإِجتماعية في المجتمع الخوزستاني على أرضية أكثر حُرِّيَّةً من أية حقبة زَمَنِيَّة سابقة. وليست هناك أية معلومات دقيقة عن عدد الصَّابِئِينَ المندائيين في إيران، إلَّا أنَّ المصادر الحديثة تدلُّ على أنَّ عددهم في إيران أكثر منه في المنطقة الجنوبية من العراق. فإنَّ شادگان، وماهشهر، وسر بندر، وحَميديَّة، وسوسنگرد، وبستان، وهويزة، وآبادان وخرمِشهر هي مراكز استقرارهم في خوزستان. (انظر: شهرية بيت مندا، شهرآذر، ١٣٨٠، ٣). وبناءً على تقرير كورت رودلف في كتابه المندائية فقد كان عدد المندائيين في إيران سنة ١٩٧٨م (٦٢٠٠) شخص. (انظر:

العربستاني، لاتا، ٣٨) ويعيش حوالي (٥٣٦٨) شخصاً منهم في المدن العراقية وهي: بغداد، والبصرة، والحلَّة، والديوانية، والتَّاصرية، والعمارة، وديالي، والكوت، والموصل وكركوك. (انظر: حسيني الشيرازي، ١٣٤٨ ش، ٣١) والأهواز اليوم هي المركز المعنوي للصَّابِئَةِ المندائيين في إيران، لأنَّ (المندي) معبد للصَّابِئَةِ، قائم في هذه المدينة، وإيضاً أعلى معبد للصَّابِئَةِ موجود فيها. وگتوروا^١ هي المقام المعنوي لهذه الطَّائفة (انظر: مجلة شهرية بيت مندا، شهر مهر ١٣٨٢، ٢) ويدعي المقام المعنوي هذا (الشَّيخ جَبَّار طاووسي) ويلقَّب بـ (گتوروا الكبير) (مجلة شهرية بيت مندا، شهر تير ١٣٨٨، ١٠) ولهذا تُعتبر خدماته الذِّنيَّة السَّابِقة في حكم (ريشا إداما) وأما الشَّخص الثَّاني من ذوي المقامات الرُّوحية العليا لصَّابِئَةِ الأهواز فهو (الشَّيخ نجاح جهيلي). ويحضر أبناء الطَّائفة صباح كل أحد عند ضفاف نهر الكارون ليقوموا بأداء طقوس التَّعميد هناك. (انظر: بيت مندا، آذر ١٣٨١، ٣) يمتنَّه مندائيو خوزستان أعمالاً ك: الصَّياغة، وتجارة الذهب، وبرادة الحديد، وسبك المعدن، وأعمالاً في الشركات الحكومية وغير الحكومية طبقاً لتصريح ترميدا سالم جهيلي. ويتمنَّع المندائيون بمجلس حلَّ الخلافات بترخيص حكومي يحمل رقم ٤٤٩ وبمكتب للزَّواج بترخيص رسمي رقم ١١٢. بالإضافة إلى ذلك بغية تطوير هذه الطَّائفة تُنشر مجلة فصلية "بيت مندا" بترخيص من وزارة الثقافة، بيت العلم والمعرفة الإسلامية. وأما (جمعية السَّيدات) فإنَّها تعدُّ من ضمن التَّنظيمات النسائية الَّتِي تقوم مندائيات الأهواز. (انظر: مجلة بيت مندا الشهرية، تيرماه ١٣٨٨، ١٠) كما أنَّ لديهم حالياً جمعية أخرى تُدعى "جمعية الصَّابِئَةِ المندائيين" يختار أعضاؤها التَّسعة لمدَّة سنتين، ومن مسؤولياتها: تنظيم الصُّفوف

للتعاليم الدينية وإعداد منشورات داخلية ونشر كتب دينية بين أبناء الطائفة وإعداد أراضٍ للمقبرة، وغرس فسائل للشجر وبناء أحواض مياه في مندى لمراسيم التعميد. (انظر: مجلة بيت مندا الشهرية، دي ١٣٨٥، ١٢) وفي الوقت الحاضر يعتبر الصابئة المندائيون أقلية دينية يمارس أنباؤها حياتهم الدينية والاجتماعية في ظل الجمهورية الإسلامية في إيران كما يتقبلهم الخوزستانيون بوصفهم فئة دينية مرحباً بها تعيش معهم باحترام وإعزاز.

أدلة تطبيق اصطلاح «أهل الكتاب» الفقهي على الصابئين المندائيين الخوزستانيين

١- اعتقادهم القوي والعميق على أن كلمة «الصابئين» الدالة عليهم هي بمعنى «الغطس في الماء أو التعميد» ولا تعني «الخروج من دين إلى دين آخر». (ترميذا سالم، حوار ٩٠/٣/١٩) وهذا المفهوم الأول في الأصل هو تلك اللغة القرآنية التي جعلت الصابئة جزءاً من أهل الكتاب.

٢- «التعميد» و«الغسل والغطس في الماء» أعلى وأفخم المراسيم المذهبية (مجلة بيت مندا، مهر ١٣٨٢، ٣) وبرز الأعمال الدينية للصابئين المندائيين الخوزستانيين (ترميذا سالم، حوار ٩٠/٣/١٩) وفي هذه المناسبة يعمد الصابئون الخوزستانيون في المراسيم الخاصة بالمندي (معبد الصابئين) على وضع أواني كـ: «القدر، الصوان، القدح (الطاسة)، الملعقة، السكين، المقلاة... ويظمشون (يغسلون) بعض المأكّل كـ: «الغنم، القمح، السمسم، الزبيب، الجوز، الرمان، جوز الهند، التمر» (مجلة بيت مندا، مهر ١٣٨٢، ص ٢) هذا العمل أي التعميد يطابق تقرير ابن النديم حين يُعرفُ التعميديين بأنهم فئة من أهل الكتاب. (ابن ندیم،

١٣٤٣ ش، ص ٦٠٦).

٣- تعلم المندائيون الخوزستانيون من كتاب «دراسة ادبيها» ككتاب مقدس مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا (ع). وكل نص من هذا الكتاب يُستهل «باسم الحي العظيم» وفصل منه يختص بتوحيد رب العالمين وهو الفصل الذي تُذكر فيه عبارة «الحي الأزلي» (دراشه ادبيها، ٢٠٠١ م، ٤) وهذا الكتاب يتطرق أيضاً إلى الوعد والوعيد (الآخرة) (السابق، ١٩٨ و ١٣٠).

٤- تختص أربع وعشرون صفحة في كتاب «كتر ربا» ثاني كتب المندائيين الخوزستانيين المقدس بالتوحيد وخلقة آدم والملائكة بيد الله تعالى. وهو الكتاب الذي يعتقدون أنه نزل على آدم (ع). وتستهل كل سور هذا الكتاب أيضاً بهذه العبارة «باسم الحي العظيم». ويختص أول تسبيح كتاب كترار «بالتوحيد» وفي هذا الفصل يُذكر الله فيه بالصفات التالية: الحي، البصير، القدير، العليم، الحكيم، الأزلي القديم... (سبهاني، ١٣٢٧ ق، ٣٠٩، كتر ربا، (لا تا)، ١) وإيضاً ثلث آيات كتر ربا حول المعاد والدار الآخرة (ترميذا سالم، حوار ٩٠/٣/١٩).

إن تمتع المندائيين الخوزستانيين لهذين الكتابين المقدسين اللذين يُذكر فيهما التوحيد والمعاد وعدّه كجزء من أصول اعتقادهم هو دليل على توحيدهم ومطابقة كلمة «الصابئين» في القرآن الكريم لهم.

٥- جاء في نصوصهم المقدسة، فلسطين، منشأهم ومبعث يحيى (ع) وتعميد عيسى (ع) والمندائيين كان على يده. (دراشه ادبيها، ٢٠٠١، ٩٩-٨٥ و ٨٢-٨٠) وبناء على هذه النصوص، فالصابئون يعتقدون أنهم قاموا من فلسطين وأن يحيى (ع) هو نبئهم (مجلة بيت مندا الشهرية ارديهشت، ١٣٩٠، ٨-٧) ويعتقدون

بهذا كأصلٍ ديني مهم اعتقاداً راسخاً. (ترميدا سالم، حوار ٩٠/٣/١٩) وبناءً على هذا الأصل نستطيع أن نعدّ هذه الفئة التي لها صلة تاريخية عميقة مع التعميديين الفلسطينيين، فرقة من أهل الكتاب والتي دُكرت في القرآن الكريم.

خاتمه

دراسة المصادر التاريخية تبين لنا أن مصطلح الصَّابَّة أُطلق غالباً في العصور المتقدمة (القرن الثالث الهجري) على عبدة النجوم الحُرَّانيين شمالي بلاد ما بين النهرين أكثر منه على الصَّابَّة التعميديين أتباع النبي يحيى (ع). وأمّا ذكره في القرآن فيعدُّ قاعدة فقهية لاعتبار أصحاب هذه الديانة من أهل الكتاب وينطبق تماماً على المندائيين من الصَّابَّة. إذاً فهم الكتاب المسلمين للمصطلح بمعنى (المشركين عبدة النجوم) لا يتوافق مع المفهوم القرآني. وعدم التوافق هذا ناجم عن التباين بين الدَّلالتين العربية والآرامية للكلمة، لأنَّ دلالتها العربية التي استند إليها الكتاب المسلمون، هي (الميل عن دين إلى آخر)، في حين يبدو أن القرآن قد اختار الدَّلالة الآرامية أي (التعميد) و(الإغتيال في المياه). والسبب الذي يدلنا على هذا الاعتقاد هو أن القرآن جعل الصَّابَّة من أهل الكتاب، إذاً لا يجوز أن يقصد بلفظة الصَّابَّة الفريق الثاني منهم أي عبدة النجوم، علاوة على هذا فإنَّ الفريق الأوَّل أي المندائيين المقصودين في القرآن كانوا معروفين لعرب شبه الجزيرة لأنَّهم استقروا في مناطق تقع جنوبي بلاد ما بين النهرين وليس منطقة حرَّان شمالي البلاد.

وأمّا الجماعات الدينية الواردة أسماؤهم في النصوص الإسلامية ك (العباديين) و(المعمدان) فقد ظنَّها الكتاب المسلمون عن طريق الخطأ جماعات مسيحية، بينما هي

ليست إلا الصَّابَّة المندائيون أنفسهم. لذا إن أمعنا النظر في ما أورده ابن التَّديم دون الآخرين عن أنَّ المغتسلة شعبة من الصَّابَّة تقطن المناطق الجنوبية من بلاد ما بين النهرين لتبين لنا أنَّ روايته في سبيل المعرفة الأنثروبولوجية أقرب الروايات إلى الواقع والمنطق وأمّا تأثر الصَّابَّة بالديانات المختلفة الأخرى كالزَّرادشتية والمناوية واليهودية والمسيحية، فقد كان سبباً في تحبُّط الموقف الفقهي للفقهاء المسلمين، إذ عدُّوهم أحياناً من المشركين وثانيةً من اليهود وثالثةً من الخوَّس ورابعةً من النَّصارى وخامسةً من أهل الكتاب عامَّة. وهم اليوم في خوزستان أقلية دينية تشكِّل إلى جانب مسلمي الإقليم جزءاً من المواطنين المنتمين للقطر الإيراني. وهم يعتبرون أنفسهم في خوزستان تلك الصَّابَّة التي أُدرجت في القرآن ضمن أهل الكتاب ويسمُّون أنفسهم "المندائيين" أو "الصَّابَّة المندائيين" وضمَّهم آية الله العظمي الخامني (مدَّ ظله) قائد الثَّورة الإسلامية في زُمرة من يعرفون في المجتمعات المسلمة بأهل الكتاب من أصحاب الديانات السَّماوية الأخرى دون الإسلام.

إنَّ أبناء هذه الطائفة في الأهواز - وهي مركزهم المعنوي - وفي مناطق أخرى من خوزستان يحبون حياة دينية واجتماعية وادعة بممارستهم لطقوسهم بكل حرية ومشاركتهم في النِّشاطات الاقتصادية والاجتماعية.

الهوامش

١. كان الآراميون موجةً ثالثةً بعد الأموريين والكنعانيين من السَّاميين الذين هاجروا من شبه الجزيرة نحو العراق وسوريا في القرن الرَّابع عشر قبل الميلاد. وقد أُنهي الآشوريون حياتهم السَّياسية سنة ٧٣٢ ق م، إلا أنَّ لغتهم قد انتشرت في منطقة الشَّرْق الأدنى دون تأثر باللُّغات الأخرى. وكان تجَّارهم سبباً لانتشارها. وهي

القرآن الكريم. (ترميذا سالم، مصاحبه، ١٩/٣/٩٠).
 ٧. "مندي" معبد الصَّابئة: كانت تلفظ قديماً "منداً" مفردةً،
 (انظر: عزيز سباهي ١٩٩٦ م. ٦٥) مشتقةً من الكلمة
 الآرامية "يادا" التي تعني المعرفة. (فيليب حتي، ١٣٨٠،
 ٢٥٥) يسميه أيضاً صابئة خوزستان "اشختنا"، (مجلة
 بيت مند، مهر ١٣٨٢؛ ٢) وهي مشتقةً من "مشكنا"
 أي البيت. (عزيز سباهي، ١٩٩٦ م، ٦٥) كان مندي
 في الأصل غرفة صغيرة تبني من القصب والطين الأحمر
 والسقف المثلث الشكل ويوضع فيه حوض للتعميد
 تجري فيه مياه النهر من المدخل إلى المخرج، (مجلة بيت
 مند، مهر ١٣٨٢، ٢) لأنَّ الصَّابئة يعتقدون خلافًا
 للتصاري بالتعميد في مياه جارية فلا يجيزون المياه
 الرَّاكدة.
 ٨. المقامات الرُّوحانية للصَّابئة المندائيين من أعلاهم إلى
 أدناهم: رباني، ريشاد إمام، كَنزورا، اشكندا ترميدا.

المصادر والمراجع

الف (المصادر

[١] القرآن الكريم

[٢] دراشه اديبيا (٢٠٠١م)، ترجمه من اللغة المندائية
 الاراميه إلى اللغة العربية امين فصيل حطاب، بغداد،
 لامكان.

[٣] كَترَا ربا (لا تا)، ترجمه هيئت مترجمين كَترَا ربا،
 أهواز، نشر جمعية صائبي أهواز.

[٤] ألبرت، كاور (١٣٨١ش)، تاريخ خط، ترجمه
 عباس مخبر، طهران، نشر مركز

[٥] ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (١٤٢٦ق)، تلبيس
 ابليس، تحقيق: السيدالجميلي، بيروت، دار الكتاب
 العربي.

تعدُّ فرعاً من اللغات السَّامية في الشمال الغربي من شبه
 الجزيرة. وأصبحت منذ حوالي عام ٥٠٠ ق. م. لغة
 لجميع الشعوب القاطنة منطقة الهلال الخصيب.
 وأدخلت في عهد داريوس الأول الأخميني (٤٨٥ -
 ٥٢١ ق. م) ضمن الدَّوائر الحكومية بوصفها خطأً
 إدارية - حكومية. (انظر: ١٤٢٨ق، ١٤٠ - ١٣٩)
 ٢. أفسُس: هي إحدى المدن المتاخمة لطرشوس (جنوبي
 تركيا الحالية)، ويقال أنَّها مدينة أصحاب الكهف
 (انظر: ياقوت الحموي، (لاتا)، ١٨٧/١)

٣. سورة البقرة الآية ٦٢. / سور المائدة الآية (٦٩) /
 سورة الحج الآية (١٧).

٤. حرَّان: كانت مدينة كبيرة شهيرة في منطقة الجزيرة،
 شمالي العراق، وأمَّا قصبة ديار مضر التي تقع بينها وبين
 الرُّها فهي تبعد عنها مسافة يوم. وكانت واقعة على
 طريق الموصل والشام وبلاد الرُّوم. (انظر: ياقوت
 الحموي، (لاتا) ١٣١/٣)

٥. الحوزة: مدينة في خوزستان بناها دبيس بن عفيف
 الأسدي أيام الطائع لله العبَّاسي (٣٨١ - ٣٦٣ق). في
 منطقة تقع بين واسط والبصرة والأهواز (م. ن، ٣،
 ٢٠٠/)

٦. قبل ذلك أيضاً (في سنة ١٩٧٥م) أحاب المرجع الديني
 سماحة آية الله الخوئي (ره) على استفتاءية المحكمة
 الشرعية في منطقته كرخ من ضواحي بغداد وصرَّح بأنَّ
 الصابئين المندائيين هم جماعة من أهل الكتاب والتي
 ذكرها الله تعالى في القرآن. (سند استفساريه وزارة
 العدل، ١٩٧٥م) وأيضاً على حَسَب ما ذكره ترميدا
 سالم، بأنَّ سماحة المرحوم آية الله كرمي (ره) وهو من
 العلماء البارزين في مدينة الأهواز، قد أيَّد المندائيين
 الخوزستانيين بأنهم فرقة أهل كتاب وقد دُكرت في

- [٦] ابن خردادبه (١٨٨٩ م)، المسالك والممالك، بيروت، دار صادر.
- [٧] ابن العبري (١٣٧٧ش)، مختصر تاريخ الدول، ترجمه عبدالمحمد آيتي، طهران، نشر علمي وفرهنگي.
- [٨] ابن النديم (١٣٤٣ش)، الفهرست، ترجمه: رضا تجدد، نشر ابن سينا.
- [٩] أبوخليل، شوقي (١٤٢٥ق)، في التاريخ الإسلامي، بيروت، دارالفكر المعاصر.
- [١٠] الاصبهاني، حمزه بن حسن (١٣٤٦ش)، سني ملوك الأرض والانبيا، ترجمه جعفر شعار، طهران، نشر مركز فرهنگي ايران.
- [١١] أمين، أحمد (لاتا)، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي.
- [١٢] الانصاري، مصطفى (١٣٨٤ش)، تاريخ خوزستان، طهران، نشر شادگان.
- [١٣] البلاذري، أبو الحسن (١٤٢١ق)، فتوح البلدان، بيروت، منشورات مكتبة الهلال.
- [١٤] البيروني، أبوريحان، (لا تا) الآثار الباقية عن القرون الخالية، بيروت، دار الفكر.
- [١٥] شوشتری، محمد علی امام (١٣٣١ش)، جغرافیایی تاریخی خوزستان، نشر امیرکبیر.
- [١٦] جرّ، خليل (١٣٨٦ش)، المعجم العربي الحديث، ترجمه سيد حميد طبيبيان، طهران، نشر امیرکبیر.
- [١٧] الجوزي، سعيد الخوري (١٤٠٣ ق)، أقرب الموارد، قم، نشر مكتبة آيت الله العظمي المرعشي النجفي.
- [١٨] حتي، فيليب (١٣٨٠ش)، تاريخ عرب، ترجمه: ابوالقاسم پاينده، طهران، نشر علمي فرهنگي.
- [١٩] حسيني شيرازي، سيد مهدي (١٣٨٤ش)، عقیده و شريعت صابئين، ترجمه: کاظم پور کاظم، سوسنگرد، نشر سرزمين خوز.
- [٢٠] الحموي، ياقوت (لا تا)، معجم البلدان، تقديم محمد عبدالرحمن المرعشي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- [٢١] الحميدي، محمد بن عبدالمنعم (١٩٨٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت، مكتبة لبنان.
- [٢٢] الخامنئي، آيت الله العظمي سيد علي (لا تا)، تحقيق في حكم الصابقة، (لا م ط).
- [٢٣] الخامنئي، آيت الله العظمي سيد علي (١٣٨٤ش)، رسالة أجوبة الإستفتاءات، (لا مكان)، منشورات المهدي العالمي.
- [٢٤] الدينوري، أبوحنيفة (١٣٦٤ش)، الأخبار الطوال، ترجمه: محمود مهدي دامغاني، طهران، نشر ني.
- [٢٥] ژرژ، ژان (١٣٨٢ش)، تاريخ مصور الفباء، ترجمه: اكبر تبريزيان، طهران، نشر علمي فرهنگي.
- [٢٦] سباهي، عزيز (١٩٩٦م)، أصول الصابقة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، بيروت، دارالمدى للثقافة والنشر.
- [٢٧] سباهي، رؤوف (١٤٢٧ق)، الصابقة المندائية في ايران، بيروت، دارالحجة البيضاء.
- [٢٨] سليم، أحمد أمين (١٣٨٢ش)، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، بيروت، دار النهضة العربية.
- [٢٩] شامي، يحيى (١٩٩٣م)، الشرك الجاهلي والآلهة المعبودة قبل الاسلام، بيروت، دارالفكر العربي.
- [٣٠] الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم (١٤٢٢ق)، الملل والنحل، تقديم صدقي جميل العطار، بيروت، دارالفكر.
- [٣١] الطبري، محمد بن جرير (١٤٢٢ق)، بيروت، دار الكتب العلمية.
- [٣٢] العربستاني، مهرداد (لا.تا)، تعميديان غريب،

القرن الرابع عشر، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر.

[٤٢] هاكس، جيمز، (١٣٤٩ش) قاموس كتاب المقدس طهران، مكتبة طهوري .

[٤٣] يعقوبي، ابن واضح (١٣٧٤ ش)، تاريخ يعقوبي، طهران، نشر علمي وفرهنگي

[44]ENCYCLOPAEDIA LOOKLEX (2011), Mandeans, <http://looklex.com>

ب - نشریات

[٤٥] بیت مندا، (آذر ١٣٨٠ ش)، العدد ٥، السنة الثالثة.

[٤٦] ———، (آذر ١٣٨١ ش)، العدد ١٧، السنة الثالثة.

[٤٧] ———، (مهرماه ١٣٨٢ ش)، العدد ٢٧ ، السنة الثالثة.

[٤٨] ———، (دي ١٣٨٥ ش)، العدد ٦٦، السنة السابعة.

[٤٩] ———، (تیر ١٣٨٨ ش)، العدد ٩٦، السنة السابعة.

[٥٠] ———، (اردیبهشت ١٣٩٠ش)، العدد ١١٨، السنة الحادية عشرة.

[51] Kurt Rudolph (2001, I), MANODAEANS

[52] <http://www.gnosis/library/Mandaean>

طهران، نشر افکار.

[٣٣] العلوي، محمد الحسيني (١٣٨٦ش) بيان الأديان، تحقيق محمد دبیرسیاقي، طهران، نشر روزنه.

[٣٤] العهد العتيق والجديد (١٣٨٠ش)، ترجمه فاضل خان همداني، طهران، نشر اساطير.

[٣٥] کریستن سن، آرتور (١٣٧٨ش)، ایران در زمان ساسانیان (ایران في زمن الساسانيين)، ترجمه: رشید یاسمی، طهران، نشر صدي معاصر (الصوت المعاصر).

[٣٦] الكلبي، هشام بن محمد (١٣٨٥ ش) الاصنام، ترجمه محمد رضا جلالی نائینی، طهران، نشر سخن.

[٣٧] متز، آدام (١٣٧٧ش)، تمدن اسلامي در قرن چهارم هجري (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)، ترجمه: علیرضا ذکاوتي، طهران، نشر امیرکبیر.

[٣٨] المسعودي، علی بن الحسين (١٣٧٨ش)، مروج الذهب، ترجمه محمد ابراهيم آيتي، طهران، نشر علمي وفرهنگي.

[٣٩] المسعودي، علی ابن الحسين (١٤٢١ق)، التنبيه والاشراف، بيروت، دار مكتبةالهلل.

[٤٠] ناس، جان (١٣٨١ش)، تاريخ جامع اديان، ترجمه: علی اصغر حکمت، طهران، نشر علمي وفرهنگي.

[٤١] وجدی، محمد فريد (١٩١٧ م)، دائرة المعارف

صابئين مندائي در تاريخ، از فلسطين تا ايران

بهادر قيم^١

تاريخ وصول: ٨٩/٩/٨

تاريخ پذيرش: ٩٠/٧/١٦

صابئين مندائي با پيشينه تاريخي عميق، از گروه هاي شناخته شده در فرهنگ و تمدن اسلامي بودند. قرآن، صابئين مندائي را در ردیف اهل کتاب قرار داده است. حوادث تاريخي مرتبط با حيات ديني و اجتماعي صابئين در سرزمين فلسطين که در سنت شفاهي و متون مقدس صابئين مندائي ذکر آن آمده، می نمايد که سرزمين فلسطين خاستگاه اوليه صابئين بود.

مهاجرت صابئين به سوی بين النهرين تابعی از عوامل بيرونی - تهاجم قوای خارجی - و عوامل درونی - درگيري با يهود - بوده است. تسامح دينی حکومت های هخامنشی و اشکانی، در استمرار حيات دينی صابئين در بين النهرين به عنوان جزیی از قلمرو امپراطوری هخامنشی تا ساسانی، مؤثر بوده و مهاجرت آنها را به سوی مناطق جنوب غربی ايران - خوزستان - تسهيل نمود. صابئين از ابتدای ورود به قلمرو جغرافيايی ايران در خوزستان تاکنون، حيات دينی و اجتماعي پرفراز و نشیب، توأم با عسر و يسر سپری کردند. اما در سال های اخير با اعلام اهل کتاب بودن اين گروه دينی توسط حضرت آيت الله خامنه ای (مدظله)، فصل جديدی از حضور تاريخی صابئين در ايران گشوده شد و باعث گردید تا حيات دينی و اجتماعي اين گروه در فرآیندی آرام سير نمايد. اين یافته نگاری با رویکردی صرفاً تاريخی و با بررسی منابع تاريخی و جرح و تعديل آنها، سعی دارد تصوير واضحی از صابئي گری و بازشناسی مندائي ها از ستاره پرستان، ارائه دهد.

واژگان کلیدی: صابئين مندائي، حضرت يحيی (ع)، فلسطين، بين النهرين، خوزستان، اهل کتاب.

Mandaee Saebeen in History, from Palestine to Iran

Bahador Ghayem¹

Received: 2010/11/9

Accepted: 2011/10/8

Abstract

The Mandaee Saebeen, with a deep historical background, was among the known groups in Islamic culture and civilization. The Qur'an has placed them among the People of the Book. The historical events related to the Saebeen's religious and social life in the Palestinian territories that are mentioned in the oral tradition and Holy Scriptures of Mandaee Saebeen shows that the Palestinian territory was their early origin. Their migration toward Mesopotamia had been under the influence of external factors – foreign invasion– as well as internal factors – the conflict with the Jews. The religious tolerance of Achaemenid and Parthian governments was effective in the continuity of religious life of Saebeen in Mesopotamia as a part of Achaemenid to Sassanid Empire and ameliorated their immigration to the south-west parts of Iran, Khuzestan. Saebeen, from their first entry to the geographical domain of Iran in Khuzestan up to now (2010 AD), have experienced religious and social ups and downs with hardships and openings. However, in recent years, with the declaration of Ayatollah Khamenei that they are among the People of the Book, there opened a new chapter of Saebeen's historical presence in Iran and provided an easy course to their religious and social life. This study, with a purely historical approach, and with a consideration of historical sources, tries to give a clear picture of Saebeen and differentiate them from star-worshippers.

Keywords: Mandaee Saebeen, Imam Yahiya, Palestine, Mesopotamia, Khuzestan, People of the Book.

1 . Assistant Professor, Shahid Chamran University, Ahvaz.

Ghayem.b@scu.ac.ir